

منذ متى أصيب التقدم بالجنون؟

جاك جوليار

ترجمة: أحمد البوسكلاوي

هل بإمكاننا أن نعرف بدقة متى تخلينا عن الإيمان بفضائل كما آمن بها أسلافنا في القرن التاسع عشر؟ نستطيع الآن أن نجيب بكثير من الاطمئنان وبشكل دقيق عن هذا السؤال: إن تاريخ هذا التخلي بدأ مع اندلاع الحرب العالمية الأولى حيث تواجهت دولتان تعدان من أكثر الدول تقدما على المستوى الحضاري، وهما ألمانيا وفرنسا، وقد اعتمدت كل منهما في هذه الحرب البليدة والأكثر دموية (في التاريخ) والتي عادت عليهما معا بافلاس لم تعهده أية واحدة منهما من قبل، أقول اعتمدت كل واحدة منهما على أحدث التقنيات، وبهذا انهارت إحدى أهم المصادر التي قامت عليها ديانة التقدم كما تصورها أسلافنا: لقد اعتقد هؤلاء أن هذه الديانة كفيلة بالقضاء وبشكل نهائي، على وبائين طالما عانى منهما الانسان وهما الحماسة وإيذاء الآخر.

■ إننا نستحضر اليوم بسخرية رهبان هذه الديانة الذين عاشوا في القرن التاسع عشر أمثال أوكست كونت، ماركس، سان سيمون، رينان، فكتور هوغو، ميشلي وغيرهم. لقد آمن كل هؤلاء أن العلم إذا دعم بالتقنية سيفتح عهدا جديدا قوامه السعادة للنوع البشري. وحتى قبل هؤلاء سيقدم كوندورسي (1)، نبي هذه الديانة الأكبر في القرن الثامن عشر، سيقدم المراحل العشر التي يعين على الانسان قطعها من أجل بلوغ العلم والحكمة والسعادة، وقد خلف لنا في هذا الصدد صفحات باتت من الأدبيات الكلاسيكية، وعَمَرَ الجميع تَفَاؤُلَ وأمل عبَّرت عنهما مختلف فلسفات التاريخ. ومع نهاية القرن التاسع عشر كانت الجمهورية الثالثة مُفَعِّمة بهذا الحماس الوضعي. "ابتداء

من اليوم لم يعد هناك يسرني العالم " سيقول برتلو Berthelot (2)، وأكثر من هذا الامكان فيه الخوف للكراهية. وتوج هذا كله بظهور الفكر الاشتراكي. وهذا الفكر- سواء لدى ماركس أو جوريس Jaurès- اكتفى بإضافة لمسة اجتماعية لهذا الفلسفة السياسية. إنه لم يناقضها بل- خلافا لذلك- زعمَ تميمها.

وفجأة، ومع مرور زمن ليس بالطويل، تحدث هذه القفزة الكبرى في بحرِ الهمجية الاكثر قدماً. إنها الحرب الكبرى. وبالنسبة لنا- نحن الاروبيين- لم نتمكن من استيعاب وهضم هذا التوقف الفجائي للحضارة: وبهذا كانت فردان Verdun (3) مقبرة للآمال العالقة بالعقل البشري. ولم تمض خمسة عشر سنة بعد على الهدنة التي لم تحل أي مشكل (بين الدول المتحاربة)، وعلى توقيع معاهدة فيرساي التي عقدت الأمر أكثر حتى ظهر فجأة هتلر ليطلق رصاصة الرحمة على ديانة القرن التاسع عشر. وأن يكون البلد الذي أنجب جوته وبيتهوفن واينشتاين هو نفسه الذي أنجب داشو Dachau (4) واشويتز Auschuitz، من شأن هذا أن ينسف الأسس التي يقوم عليها إنجيل كوندورسي الذي دعى وروّج له، والذي بمقتضاه يكون التقدم العلمي والتقني ليس مساهما في تحقيق السعادة البشرية فحسب بل إنه سيمنع لهذه السعادة مشروعيتها الأخلاقية. وإذا كان القرن العشرون قد شهد فعلا ما أسماه روسوب "التدرج في اكتمال العقل البشري". فإنه (أي القرن العشرين) قد فضل أيضا تشاؤمه حين اعتبر أن التقدم العلمي والفني [التقني] قد يؤدي إلى تدهور لارجعة فيه للإنسانية (5). وإذا كان الانسان قد عول على هذا التدرج في الإكتمال لكي يصبح إلهاً [خيراً]، فإن هذا التدرج نفسه قد جعل منه لوسيفر Lucifer اله الشر. (. .) (6). ان ما يستأثر باهتمامنا ويستوقفنا ليس كون النازية قد ذهبت في سحقها لانسانية الانسان إلى أقصى حد ممكن وفي وسط القرن العشرين بالذات، وذلك بقلبها لمنحنى التقدم. بل إن ما يستوقفنا هو أن يكون هذا السحق من فعل أمة من أكثر الأمم حداثة وحضارة على وجه الأرض. وحتى لو استحضرننا [على سبيل المقارنة] مثال روسيا وما صاحب نشأة وتطور النظام الشيوعي فيها من أعمال همجية فقد نجد لها(روسيا) العذر: فقد كانت بلداً متخلفاً. ولكن ماذا يمكن أن نقول عن ألمانيا؟ وماذا يمكن أن نقول عن هيدجر؟ كيف نُفسر رضى فيلسوف كبير مثله (أوليس هيدجر من أكبر فلاسفة القرن العشرين؟) بالنازية وتقبله أياها؟ أولاً نعتبر هذا أمراً جديداً؟ أوليس الأمر في حد ذاته مصدراً للحيرة؟ هل يمكن لنا أن نتصور

فيلسوفاً يلعب هذا الدور في القرن العشرين؟ (7).

إننا لا نَمَلُّ من تكرار وترديد القول بأن النظرة إلى التقدم التي تَثَبَّتْ وَتَدَعَمَتْ طيلة سنوات القرن 19 هي حصيلة تطور [أفكار وتصورات] يرتد تارة إلى الفكر اليوناني وتارة أخرى إلى الفكر اليهودي، وبخلاف ماتم تأكيده منذ سنين فنحن نرفض ذلك التَّقَابُلَ القائم بين التصور الدُّوري الموروث عن الفكر الاغريقي وبين التصور الخطي المنحذر من الفكر اليهودي، لقد تحكمت نظرتان مترابطتان في تصور اليونانيين للزمن: النظرة التي تعتبر الزمان بمثابة استثناءات للبدء (أو بدايات مستأنفة)، وهي اطروحة العود الأبدي، والنظرة الثانية تعتبر الزمن عبارة عن تعاقب حقب أو عصور ولكنه تعاقب موجه نحو غاية ما، وهي اطروحة التقدم إلى الأمام دون رجعة [التقدم=السير إلى الأمام]. وسنجد هذا القصور للزمان واضحا في فكرة التاريخ. ألم يكن هوزيود (8) He-siode وتوسيديد (9) Thucydide مواطنين يونانيين؟ أما عن الفكر اليهودي فإن أنبياء العهد القديم قد جعلوا من الزمان، بل من التطور إن شئنا الدقة، مركز نظرتهم [وانشغالهم الفكري]. وهكذا نلمس أن التشاؤم العميق قد طغى على بعضهم كجيريبي Féramie الذي لم يَرَفِ في تدفق الزمان إلا انحطاطا مستمرا للشعب اليهودي بينما اعتبر البعض الآخر كإيزاي Isaie ان العصر الذهبي لهذا الشعب لا يوجد في الماضي بل سيوجد في المستقبل حيث سيحقق السلم بين البشر ("سنصنع من السيوف اسنة للمحراث") ويتحقق التصالح بين الانسان والطبيعة ("سيتساكن كل من الذئب والشاة").

وإذا كان دانيال Daniel من خلال تحقيبهِ للزمن قد أبرز تعاقب العصور فإن الفضل في ظهور التصور المرحلي يعود إلى العهد الجديد. ذلك أن فكرة الماقبل والمابعد [التاريخ] تعود إلى ظهور المسيح على الأرض. ومع سان أغسطين سيكتمل هذا التصور الفلسفي والديني للتاريخ. وبهذا استحق أن يكون أول فيلسوف كبير لهذا الزمن الحداثي.

وينبغي التنويه بأن هذه النظرة (أي ان الزمان موجه نحو غاية ما)، بَعْدَ ان تدرجت في سُلْمِ العلمانية هي التي ستهيمن في القرن 19. وحتى قبل هذا القرن بكثير، تحديد في القرن 12 ظهر فكر جريبي قَصَدَ تجاوز تنائية ما قبل وما بعد [التاريخ] ليقتراح تحقيبا ثلثيا للتاريخ: حقة الأب، حقة الابن، حقة روح القدس، وقد حمل لواء هذا الفكر الراهب الإيطالي جواشيم دي فلور (10) lore Joachim. [وإن شئنا تاويلا ايدولوجيا

لهذا الفكر لقلنا: [يكفي للمحرضين الاجتماعيين [الثوار مثلا] أن يزعموا، انطلاقا من تصور هذا الراهب، إن حقبة الروح قد حانت وأن ساعة العدالة قد دقت، يكفي هذا لكي نكون قد انتقلنا من تصور لاهوتي للتاريخ، أو من الألفية المسيحية، إلى عهد الاشتراكي الحديثة. وهذا الانتقال لم يحصل فجأة، بل جاء-طبعاً- عبر تطور طويل تداخلت وتعاقت وتبادلت فيه الريادة كل من الحركات الاجتماعية الثورية من جهة، والانتاجات الفلسفية من جهة ثانية ابتداء من توماس مونزر (11) T.Munzer وانتهاء بكارل ماركس. وبدون أن نتنبه للأمر تحول مفهوم روح القدس عند جواشيم دي فلور إلى روح العالم عند هيجل وكان كلا من فكرة التقدم ومن الصيرورة في الغرب منذ العصر الوسيط إلى بزوغ فجر الحداثة، كأنهما ترحمتان لنفس الجوهر. [والجوهر بالمفهوم الفلسفي واللاهوتي].

وإذا كان الإيمان في التقدم، أي أن النوع البشري يسير قدماً إلى الامام لتحقيق الاكتمال اللانهائي، إذا كان الإيمان هذا قد انهار، وبعبارة أخرى إذا كانت ديانة التقدم، وهي ديانة مدينة، جاءت لتعوض ديانة أخرى، وجاعلة من نفسها الند الاخلاقي [البديل] للمسيحية في عالم ما بعد المسيحية، إذا كانت قد فقدت بريقها واشعاعها فمن الطبيعي [والمنطوق] أن يغدو الانسان جاحدا وكافرا بكل شيء، بما في ذلك المستقبل وفكرة الخير. وربما كافرا بنفسه أيضا.

وإلى هذه النقطة بالضبط قد وصلنا اليوم، حقا، إن نحن ألقينا نظرة حولنا سنجد أن التقدم المادي الذي هو ثمرة العلم والتقنية، حاضر أمامنا وربما بشكل لم يسبق له مثيل. وأكثر من هذا فهو مستمر في ممارسة سحره وجاذبيته على العالم بأسره وليس على الغرب وحده والذي أوجده في شكله الحديث. وبهذا فإنه يشكل التحدي الأكبر لمختلف الديانات والايديولوجيات والمعتقدات وأنماط الحياة [السائدة] ويضعها في مأزق. الا أنه، وبالنظر لما ذكرناه أعلاه، فلم يعد التقدم محافظا على نفس الوضع أو المكانة [التي كان يحتلها]. فإذا كان بالأمس حلاً فقد أضحى اليوم مشكلاً، وهل من الضروري تقديم أدلة؟ لناخذ الايكولوجيا أو الدفاع عن البيئة. نعم أن هذه الايكولوجيا قد بدأت بالتدرج تحتل مكان الاشتراكية، وغدت بالتالي حاملة لايدولوجية بديلة، وإذا كانت الاشتراكية- كما يبدو من تسميتها [بالفرنسية] (12) نقدا اجتماعيا للنظام الصناعي فان الايكولوجيا هي نقد تقني. بمعنى آخر إذا كان الاشتراكيون يقفون في

الطليعة [مقدمة الباخرة] ويطالبون بتغيير المحرك، فان الايكولوجيين يتموقعون بعيدا إلى الوراء [مؤخرة الباخرة] وينادون بضرورة ادخال اصلاحات على المحرك. ويحدث وربما لأول مرة في التاريخ منذ الثورة الفرنسية ان تيارا سياسيا اعترف به كمكون من مكونات اليسار، يدعو لا إلى التغيير ولا إلى التقدم، بل يدعو بكل بساطة- إلى المحافظة، ليس المحافظة على الطبيعة فحسب بل على انماط الحياة وعلى الحضارة. انها لحظة تاريخية جديرة بالتسجيل: لحظة وعى فيها التقدميون مساوئ التقدم (13). وبالرغم من كل هذا فلازال الأمل معقودا على أن يتحول التقدم المادي إلى تقدم اجتماعي، والملاحظ ان الارتفاع المسجل في المستوى المعيشي في البلدان الصناعية لم يصحبه انخفاض في اللامساواة بين الناس. حقا إن معدل الأعمار قد ارتفع وباتت الحياة أقل مشقة والنساء يتقدمن- وإن ببطء- نحو المساواة [مع الرجال]. يحصل هذا كله في البلدان الصناعية، أما في العالم الأقل تقدما أو المتخلف قطعا، فان التقدم بمستوييه المادي والاجتماعي يبقى المطلب أو الحافز الاساسي.

ومن جهتنا فقد تخلينا عن الفكرة القائلة بأن التقدم المادي وحتى الاجتماعي كفيلا لوحده بخلق عالم جديد وبالاخرى خلق إنسان جديد. ففي عز ديانة التقدم كنا نعرف أن التقدم لن يتحقق في بعض الميادين كالفن أو الفلسفة. لم يكن بيكاسو متفوقا علي دافنتشي ولاكانط على أفلاذون. وأكثر من هذا لم نكن لنتجرأ على تخيل تقدم اخلاقي ومعنوي للانسان مبنيا على تحسن في شروط العيش بينما نجد أنصار التقدم بقلسفتهم التسويفية (أو التآجيلية) eschatologie يُشهرّون الحل الاجتماعي معتبرين آياه أساسا لحل المشكل الأخلاقي العنيد، وكانهم يقولون: لنبدأ بإصلاح المجتمع وسيتبع هذا لامحالة اصلاح الفرد. وبهذا فالتقدم لا يقدم أية اجابة عن السؤال القديم والمزمن حول الشر، هذا السؤال القابع في قلب الانشغالات الدينية، بل إنه يراوغه ويتحايل عليه (بالتأجيل). والحال أن هذا التفاؤل المنهجي لم يعد يلزم أحدا، فهو ليس عديم الجدوى والفعالية فحسب بل نذهب إلى حد اتهامه باشاعة الجريمة والتشجيع على انتشارها.

ولقد لاحظت حنا ارندت (14) كيف أن واقعة اشويتز قد أعادت السؤال الميتافيزيقي إلى قلب الانشغال (أو القلق) الانساني: لماذا يوجد الشر الجذري؟ وكيف نسلُكُ بإزائه؟ حقا إن التقدم مازال مستمر الوجود في عالمنا، ومازال يحاصرنا من كل جانب، ولكنه، ما كنا نتصور يوما أنه سيتخلى عن صحبه وبهَرَجته. رباه كم غدا اليوم أكثر تواضعا.

■ الهوامش

- (1) كوندورسي (1743-1794) فيلسوف فرنسي وعالم رياضيات ورجل سياسة كان متحمسا لأفكار فولتير، ساهم في الاسكلوبيدية، مارس السياسة، فر من الارهاب ليقع اسيره فيما بعد ثم يموت مسموما بإحدى السجنون. اهم كتاب له هو "تخطيط للوحة تاريخية لتقدم الفكر البشري". ويُعد هذا الكتاب بمثابة المجبل لديانة التقدم.
- (2) برتيلو Berthelot (1827-1907) كيميائي فرنسي ورجل دولة.
- (3) فردون Verdun: معركة شهيرة بين الفرنسيين والامان وقعت عام 1916 استمرت قرابة سنة وقتل فيها حوالي 700 ألف من الطرفين.
- (4) داشو Dachau: مدينة المانية. اقترن اسمها بمراكز الاعتقال التي كانت تضم معارضي النازية، ومن هذه المدينة أيضا تم تجهيز هؤلاء المعارضين.
- (5) يقول روسو: "ومن المحزن لنا أن نكون مضطرين إلى الموافقة على أن هذه الخاصية المميزة [للانسان]، خاصة قابلية الاكتمال، الخاصة التي لاحدود لها تقريبا، هي مصدر جميع ويلات الانسان (...). وان هذه الخاصية، إذ كشفت له، على مرور الأجيال، أنوار هديه وظلمات ضلالاته ورذائله وفضائله، هي التي جعلته مع تراخي الزمان، طاغية نفسه وطاغية الطبيعة".
- (7) ان علاقة هيدجر بالنازية علاقة غامضة لا تزال تحير الكثير من المهتمين. والبحث فيها ليس دوما نزيها أي خاضع لدواعي تاريخية وفلسفية فقط.
- (6) تشير نقط الحذف إلى قولة لاتينية، تفضل أحد الأصدقاء بترجمتها مشكورا وعربها على الشكل التالي: "يَهْلِكُنِي أن تذهب الآمال المضبعة في الخير سدى".
- (8) هوزيود شاعر يوناني عاش في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، امتازت اشعاره بوصف دقيق للعالم القروي كما كانت تنحو منحى تعليميا وأخلاقيا.
- (9) توسيديد (460-400 ق م) من أشهر مؤرخي الاغريق القدامى، يُعزى إليه انه مارس النقد التاريخي وأنه فصل بين السياسة والأخلاق ومجد القوة.
- (10) جواشيم دي فلور (1130-1302) متصوف ومفكرا إيطالي، اشتهر بالتفكير بعيدا عن ارتدوكسية الكنيسة وقدم في هذا الإطار فلسفة دينية تاريخية تبشر بان مرحلة سيادة روح القدس آجلة.
- (11) مونزر (1489-1525) مصلح الماني انضم إلى حركة الإصلاح الديني في القرن 15، وكان قائدا لجيش الفلاحين ضد الأمراء.
- (12) socialisme وترجمتها الحرفية النزعة الاجتماعية أو الدفاع عن المجتمع.
- (13) الإشارة هنا إلى حكومة الاشتراكيين الحالية في فرنسا والتي تضم من بين ما تضمه الايكولوجيين ويتوقع ان يحدث نفس الشيء في ألمانيا.
- (14) Hannah Arendt (1906-1975) فيلسوفة من أصل الماني. درست على يد مجموعة من الاساتذة أشهرهم هو سرل، ياسبرز وهايدجر.هاجرت إلى امريكا حيث حملت على الجنسية. لها مؤلفات كثيرة أشهرها "أصول التوتاليتاريا".